مقاربة مفاهمية في مفهوم نظرية السلطة الرمزية
وكيفية توظيفها للرأسمال الرمزي لدى بيار بورديو

أ. كلتوم بن عبد الرحمان
جامعة الحاج لخضر باتنة-1- الجزائر

ملخص:

لقد قدم بيار بورديو مفهوما راديكاليا للسلطة أطلق عليه مفهوم السلطة الرمزية، محدثا بذلك قطيعة إبستمولوجية مع كل الأطروحات الفلسفية والسياسية التي تناولت هذا المفهوم، حيث عكف بورديو هنا على إظهار الجانب الخفي والغامض لها من خلال تركيزه على السمة الرمزية، خاصة لحظة الممارسة (ما يعرف بنظرية الممارسة التي جاء بها) النابعة من علاقاتها مع مجموع الراساميل الرمزية، فالرأس مال الرمزي تستخدمه وتوظفه لصالح خطاباتها وأهدافها، كآلية فعالة للهيمنة ولاختراق البنيات الشعورية والمعرفية، وفق تصور منظم ودقيق يتجدد من خلال ميكانزمات ما يعرف بإعادة الإنتاج، فهي مبثوثة في كل مكان في الحقول والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية داخل ما يعرف بالفضاء الاجتماعي، ممتدة عبر التاريخ والزمان، مستندة على الرأسمال الرمزي بمختلف صوره وأنماطه، ليكون بذلك ناطقا رسميا لخطاباتها، والضامن الشرعي لانتهاكاتها وفق اطر القانون والشرعية.

Summary

It is clear that Pierre Bourdieu has introduced a radical meaning to **Power** "**the meaning of Symbolic Power**", resulting by that an epistemological rupture with the entire philosophical and political thesis. From this side, he tried to reveal its ambiguous and hidden side throughout focusing on the symbolic feature, especially, when it will be exercised, i.e. **Exercise Theory's Bourdieu,** that is resulted from its relationships with the entire symbolic capitals.

It is obvious that the power uses the symbolic capital. Also, it inserts this last for the benefits of its aims and discourses in terms of an efficient mechanism of domination in order to enter to the epistemological and conscious structures. Obviously, it happens according to an accurate conception, renewing through what it is named by reproduction. However, power is spread out everywhere and whenever either among the social relationships or inside the social space. In addition, power is based on the different types and aspects of symbolic power. Consequently, symbolic power becomes the official leader of power's discourses and its legal guarantee of its violation in accordance to the legal context.

مقدمة:

يتفرد فكر **بيار بورديو**(1930-2002) وهذا استنادا إلى عملية الإطلاع على بعض نصوصه، التي يمكن تصنيفها في إطار علم الاجتماع السياسي بالتميز في الطرح والمساءلة، فهو يظهر أسلوبا جديدا في الفهم، و يقدم أفكاره بطريقة مغايرة وأصيلة فيؤسس لنظريات و قضايا من عمق الفكر المعاصر، ومن بين اهتماماته أو من بين المسائل التي عالجها مسألة "**السلطة**" فأبدع في التنظير لها، موضحا وكاشفا كيفيات وآليات الاشتغال التي تخص شؤونها ومنطق حقولها وتجلياتها، محترما للقواعد الإبستمولوجية التي تحكم بناء الموضوع السياسي أو السوسيولوجي، و موضحا لعملية التطبيق العملي في العلاقات والمبادئ، كاشفا عن اللبس الذي يكتنف بعض المفاهيم الكلاسيكية التي توظف في فن الممارسة السياسية، معريا الوجه الحقيقي لها الذي يهدف إلى الهيمنة على الفضاءات و الحقول الاجتماعية، و مفسرا بذلك كيفية التوظيف السياسي لمخزون الرساميل الرمزية الثقافية، وهذا بعد أن يكشف العمليات الإستراتجية التي تحكم عالم السياسة و طبيعة العلاقات التي تجمع بين طرفي معادلة المهيمنين والمهيمن عليهم، مسقطا بذلك صفة الوصاية والقداسة عن ممارسات السلطة التي تدخل في إطار تخليد الهيمنة، رافضا بذلك الرؤية البنيوية أو الموضوعية التي تعطي الأولوية في إعادة الإنتاج الاجتماعي إلى قوة تأثيرات البنى وظروف التنظيم الذاتي، كما يرفض التصور الذي يجعل من الذات مرجعا لهذه العملية، وأيضا يفند أن تكون علاقات الهيمنة نتيجة حتمية الممارسات أحادية الجانب أو المصدر.

وموقف بورديو يذكرنا أو يحلونا مباشرة إلى الأب الروحي للإبستومولوجيا المعاصرة الفيلسوف الفرنسي **غاستون باشلار** (1884-1964)، الذي يؤكد على مسألة مهمة مفادها أنه ليس ثمة تطابق كلي أو مطلق بين ما هو عقلي و ما هو واقعي فليس كل عقلي واقعي بالضرورة، وبموقف عالم النفس السويسري **جون بياجيه** الداعي إلى ضرورة إدراك المعرفة من خلال عملية نشأتها، في إطار ما أسماه بالإبستومولوجيا التكوينية.

إذا مرجعيات بورديو متنوعة و متعددة، حيث يرى أن فهم الواقع من خلال العلاقات هو الأفضل و الأجدر لأن هذه الطريقة تساهم نسبيا في فهم حقيقة العالم الاجتماعي، الذي هو الآخر يتركب من شبكة من العلاقات الاجتماعية على الرغم من اختلاف الظواهر والوقائع.

و لم يرق لبيار بورديو إطلاق لقب "**الباحث الاستثنائي**" عليه؛ فحاول تمثيل دور المثقف النقدي المشاغب، على غرار جون بول سارتر و ميشال فوكو، لينخرط ويندمج مع و في الصراع الاجتماعي السياسي، محاولا بكل جرأة منهجية الكشف عن الوجه الخفي للسلطة و بتحديد جانبها الرمزي الذي يعد أهم وأخطر من شقيها المادي الظاهر للعيان مما أدى به إلى إحداث ثورة رمزية على صعيد الكتابة، مست أسس الطرح التقليدي الضيق لمفهوم السلطة، ففسحت المجال إلى أفق تأسيسي أكثر عمقا، وعقلانية خاصة في مجال الدراسات الاجتماعية بصفة عامة وعلم

الاجتماع الإنعكاسي[*] بصفة خاصة حيث يعد بيار بورديو أحد أبرز فرسان هذا العلم، وتأسيسا على ما سبق فإن إشكالية هذا المقال تتمحور حول القراءة التي قدمها بورديو لمفهوم السلطة الرمزية والدور الذي تلعبه في تحريك وتمرير خطاباتها عن طريق الرأسمال الرمزي باعتباره الضامن والراعي الرسمي للشرعية في ممارستها وأفعالها، وفي تحليلنا هنا سنحاول الإجابة على التساؤلات الآتية:

كيف بنا بورديو نظريته حول السلطة الرمزية؟ ما هو مفهومها؟ وما هي آليات و ميكانزمات اشتغالها؟ وما هو الجديد الذي قدمه بورديو تجاه مسألة السلطة وعلاقتها مع الفاعلين و المنخرطين بعبارة أخرى المسيطر عليهم؟ وكيف ترتبط الشرعية بالسلطة الرمزية؟ و كيف يصبح الرأسمال الرمزي أداة في يد السلطة ؟ بعبارة أخرى كيف يستثمر الرأسمال الرمزي الذي يعد ثروة وغنيمة لها تمرر عبره إرادتها ورغباتها ؟ و متى يصبح الرأسمال الرمزي منتجا للشرعية و بالتالي ضامنا لاستمرارية السلطة ؟

أولا: في مفهوم السلطة الرمزية:

إن أعمال بورديو يمكن أن تصير مقروءة في ظل هذه التساؤلات وما ينجر عليها من تصورات، يقدم لنا بيار بورديو مفهوما عاما للسلطة الرمزية في محاضرته الافتتاحية درس في الدرس في الكوليج دو فرنس ليقول :«**السلطة الرمزية هي سلطة لا مرئية ولا يمكن أن تمارس إلاّ بتواطؤ أولئك الذين يأبون الاعتراف بأنهم يخضعون لها بل ويمارسونها** ».[1]يحاول بورديو أن يجيب عن ما يعرف بالغز "**الإذعان المدني**"، وهذا هو مرتكز نظريته حول السلطة الرمزية، فهي تستند دوما إلى أسلوب التستر و التخفي، ولا يسعها أن تصل إلى مرادها وتأثيرها المفترض و بشكل فعال إلاّ من خلال شرط التعاون الذي يجب أن تلقى صداه من قبل أغلبية المسودين الذين يعدون المعنيين المباشرين بها، وفي نفس الوقت تبدو لهم الأمور عادية وعلى خير ما يرام في حين أنها تشتغل على استهداف البنية النفسية والذهنية للمتلقين لها، فتمارس فعلها بعمق، وتخطط من أجل فرض وتحقيق الأهداف المرجوة منتجة بذلك أفضل الآليات والأدوات التي تضمن لها النجاح من أجل تكريس وتثبيت الوضع الاجتماعي الذي تراه مناسبا، «في إحدى الفقرات الشهيرة من **الحس العملي** يكتب بورديو حول السلطة الرمزية قائلا: "**تحض على الجوهري متخفية تحت اقتضاء التفاهة**"، بمعنى ترسخ قدرتها السرية على الإقناع في الذهن وذلك من خلال أوامر تافهة مثل قف مستقيما أو لا تستعمل سكينك باليد اليسرى، علم الكونيات والأخلاق و الميتافيزيقا والسياسة يتم ترسيخها في الأجساد ولا شيء يؤثر فيها في وقت قياسي لإخراجها من الظل ».[2] و تمارس سلطة الرمز كل هذه الممارسات بطريقة جد منظمة و بنائية، ومن بين الأنظمة التي تتجلى فيها هذه الآليات المؤسسة التعليمية، باعتبارها منظومة عامة وشاملة ورمزية.

هناك مسألة جد مهمة يمكن اعتبارها نقلة نوعية في تطور المفهوم من رؤية سوسيولوجية، تتعلق بتوسيع دائرة السلطة، ويتضح ذلك من خلال عمل المؤسسة، أيا كانت هذه المؤسسة، رغم تظاهرها بالبراءة، فهي قائمة لتوفر علينا عناء التساؤل، بينما هي في الحقيقة تعمل على فرض حقيقتها هي، ولو كانت جزئية وغير متماسكة كما لو أنها حقيقة العلاقات الموضوعية بين مختلف الجماعات،[3] فالمؤسسة بالنسبة لبورديو هي التي تحدد المقدس، وهو في هذا التفسير يستفيد من الطرح الدوركهايمي الذي ينطلق من مسلمة «**أن المجتمع هو الإله ولكن لنقل بأنه ربما لم يكن القدسي إلاّ وليد المجتمع**»[4]

لطالما كان المسيطر هو الذي يملك الوسائل ليفرض على المسيطر عليه أن يدركه بالطريقة الأحسن التي يريد أن يكون مدركا بها، يعني هذا أن هناك وصاية عليا، متمثلة في الدولة التي يراها بورديو انطلاقا من التحديد الذي يقدمه **ماكس فيبر** بأنها المحتكر الشرعي للعنف الجسدي، غير أنه يوسع معناه (بورديو) ليشمل الفعل الرمزي برمته، فالدولة عند بورديو لا ينبغي اختزالها في عنف مادي أحادي الجانب، لذلك يعطي مفهوم العنف الرمزي (الذي سنعود إليه في الفقرات القادمة من هذا المقال) و الذي يعني الضغط و القسر والتأثير الذي تمارسه الدولة على الجماعات الخاضعين لها بالتواطؤ معهم، ليتجلى مقصدها بكل وضوح في المؤسسة التعليمية أو النظام التعليمي والذي بدوره يعدو نوع من أنواع نظم الاستعدادات والتصورات (السموت) يتم من خلالها ترسيخ بديهيات النظام السياسي، و اعتبار علاقات السلطة معطى عاديا طبيعيا و آليا، ففي نظر بورديو الدولة تعمل على تصنيم الوضع (تثبيته) وتأسيس النظام الاجتماعي عن طريق مقولات الفكر التي تضفي عليها طابع الشرعية.

يقول بورديو في هذا السياق:«**الدولة عبر التأطير الذي تفرضه على الممارسات، فإنها تنشئ وترسخ في الذهن أشكالا رمزية للتفكير المشترك، وأطرا اجتماعية للإدراك ، وللفهم وللذاكرة، إنها أشكال للتصنيف خاصة بالدولة، أو على الأصح أنظمة تطبيقية للإدراك و للتقدير للفعل**».[5]وهكذا تسعى إلى تشكيل ما يعرف بال**حس المشترك** الذي يعد سلسلة من التراكمات و السيرورات التاريخية يتم دمجها وتثبيتها لدى الذوات، فالسلطة الرمزية للدولة ليست في حاجة إلى قوة لكي تتمكن من أن تفرض نفسها و إنما هناك نوع من الاتفاق الفوري والضمني يؤسس لعلاقات الخضوع.

كما يعني أن مقولات التفكير وأنساق التصنيف Intériorisation تحدد وتعين لكل فرد مرتبته داخل التراتبية الاجتماعية فالمجتمع بكل منظوماته الأخلاقية و بكل محددات السلوك والتفكير عبارة عن تاريخ يسكن الأشخاص في صورة نظام كلياني توتاليتاري للمواقف والمؤهلات.

فالدولة تلعب دورا محوريا سواء في إنتاج هذه البنيات المعرفية ، أو في عملية ترسيخها عبر النظام المدرسي و في هذا المقام يقول بورديو:«**إن أي نشاط تربوي هو موضوعيا نوع من العنف الرمزي و ذلك بوصفه فرضا من**

قبل جهة متعسفة لتعسف ثقافي معين».[6] فمهما اختلف نوع هذه الهيئة التي تقف وراء هذا الفرض والقسر سواء أكانت تمارس من قبل مجموع الأفراد المتعلمين أو من قبل أعضاء العائلة أو من طرف نظام يستند إلى عملاء يفوضهم أو يرخص لهم؛ أداء مهام معينة كمهمة إعادة إنتاج نموذج ثقافي متعسف خاص بالطبقات السائدة (فتحدد المرجعية التربوية للقوة الرمزية يتناسب مع وزنها داخل بنية علاقات القوة والرمزية وهي في الغالب علاقات قوة)،" ففاعلية المؤسسة المدرسية تقوم على قبول الجميع لشرعية مبدأ العنف و أحكامه، إنه عنف لطيف في الحدود التي لا ينكشف فيها عن قوة فظة، لكنها واقعية فعلا، لأنه منبع انتقاص القيم الاجتماعية والانفعالات المؤلمة (ذل، قلق، خجل...إلخ) التي تصاحبها، فالعنف الرمزي هو الآخر غير مرئي، و مموَّه عبر تسجيله حتى في بنية مؤسسة تفلت شرعيتها من الشك و تنساق بالبداهة العادية للتاريخ المدمج."[7] فالسلطة الرمزية تكتسب مشروعيتها إلاَّ من خلال عنفها وتعسفها ويتمثل جوهرها في عملية تطبيع الفرد بالشعور بدونيته، كما تعمل على زيادة الإحساس بضعف قيمته الذاتية و ازدراء الأنا، بأساليب تمويهية مخفية لكي تتمكن من تحقيق أهدافها و غايتها السلطوية.

و يقوم العنف البنيوي حسب بورديو على التعسفية الثقافية الموروثة من المثال السيميولوجي السويسري (دي سوسير) حتى يستبعد باسكال بشكل أفضل، لأن التعسفية التي يستحضرها تفهم بمعنى مزدوج للفظ، فهي نتاج للعادة، كم أنها نزوة للقوة، وعنف دون تبرير، فلا يوجد أساس للسلطة بل نوع من "**مبدأ عدم الصواب الكافي**".[8]

فالعنف الرمزي الذي يختفي وراء العنف الظاهر، يتغذى من تاريخ القوة، ليثبت ويعاد إنتاجه من خلال فعل التعود الذي يكرس من قبل المؤسسة وبضبط مؤسسة السلطة كما يقول بورديو في هذا الصدد:«**فالمؤسسة القائمة تنسى بأنها متحدرة من سلسلة طويلة ، وتقدم نفسها بكل مظاهر ما هو طبيعي** ».[9] فالنظام الاجتماعي يملك دائما ولصالحه قوة ما هو عادي وطبيعي ، بعبارة أخرى يملك القدرة على فرض النمطية و العادة وترسيخ السموت في أذهان المتلقين، فنظام الإدراك مسخر لخدمة سلطة القوة، فالسلطة الرمزية لا تسري في المجتمع إلاَّ من خلال تقبل بديهيات الاعتقاد العادية و العملية، التي يتفق ضمنيا كل الناس حولها داخل معطى إجتماعي و الذي يبدو على أنه لا ينطوي على أية مشكلة و لا أية منفعة سياسية، و كأن الضحية والجلاد يشتركان في نفس التصورات ويؤمنون معا بكل المقولات و المفاهيم التي تضع الفرد في أقفاص المذلة و المهانة فالعنف الرمز أشد أنواع العنف الموجهة ضد الكائن الاجتماعي و خاصة في شكله الثقافي الذي تشكل وتمخض عبر مئات السنين من التاريخ.

السلطة الرمزية سلطة ليست ككل السلط و لأن فكر بورديو ينزع دائما إلى التفكير على نحو **علائقي** فهي عبارة عن "نظام من العلاقات المتشابكة تؤدي في النهاية المطاف إلى تشكيل نسيج كثيف وسميك يخترق كل الأجهزة والمؤسسات و أيضا الأفعال والعلاقات من دون أن تستقر في واحد منها، فهي شبيهة بالزئبق، متحركة لا تقف لها

على وقفة واحدة."[10] فهي مبثوثة في جسد المجتمع دون أن تحتكر فضاء أو حقلا معينا، فتكتسح كل شيء دون أن تختزل في سلطة واحدة، فالسلطة سلط وكل واحدة مرتبطة بالفضاء الذي تمارس فيه.

الهيمنة لدى بورديو تمارس في الجسد و بالجسد أو امتداداته، على الرمز والمعنى، لذلك كثيرا ما يحيل بورديو في حديثه عن شرعية الهيمنة إلى فيبر بيد أن ما يبدو إضافة لبورديو، هو كشفه لآليات الهيمنة الرمزية عبر الرأس مال الرمزي وقد سماها بال**خمياء الرمزية** [11]؛ يطال تأثير السلطة كل أشكال الرمز والمعاني فالإكراه المحض لعلاقة القوة يترافق دائما مع علاقة المعنى ويتم تمريره عن طريقها و من خلالها، و لكي يرسخ سلطته عليه أن يتحول إلى نفوذ إدراكي.

وعلى اعتبار أن أحد أهم المرجعيات الفكرية التي يستند إليها بيار بورديو في أعماله ماكس فيبر حيث يظهر التأثير واضحا من اقتراب الرأسمال الرمزي من مفهوم الشرعية أكثر من أي مفهوم فيبري آخر، على أساس أنه مستغرق داخل كل سلطة أو – إن جاز لنا التعبير– هو أداة منها أو ذات السلطة التي تمارس بها الهيمنة، فالسلطة الرمزية لا تتخذ شكلا خاصا للهيمنة، بل إنها تتخذ القوة التي تحوز عليها كل سيطرة سواء أكانت اقتصادية سياسية أم ثقافية أو حتى دينية و غيرها كثير.

حتى تصير قادرة على أن يتم الاعتراف بها، أي أن تجعل نفسها منكرة داخل حقيقة سلطتها و عنفها التعسفي ... فعلى سبيل المثال: النبيل في اللاتينية Nobilise وتعني رجل معروف ومعترف به.[12] تعريف كهذا يحيلنا مباشرة إلى مسألة الشرعية، التي أعاد لها بورديو صياغتها: «**هي الشرعية Légitimitéأي مؤسسة وفعل أو استعمال مسيطر و غير مقدر على هذا النحو، أعني أنه معترف به ضمنيا** »[13] فإشكالية الشرعية تؤكد على أهمية العلاقة الرمزية التي ترتبط بالاعتقاد المتقاسم Croyance Partagé (أو الاعتقاد المشترك)، فالسلطة الرمزية التي تعد أرقى التعبيرات السلطوية، "تمثل أفقا عاما يوجه نشاطات الأفراد والجماعات التي يشق عليها السعي حتى تشرعن هذه الشرعية من خلال أفعال ما بعد تبريرية لعلاقة هيمنة."[14] فالنظام الاجتماعي يفرض نفسه بقوة على الأجساد، إنه مدين في جانبه الجوهري من قوته إلى الشرعية التي يحوز عليها بعد انخراط الفاعلين الاجتماعين في التصنيفات التي تحدد وضعياتهم حيث تجد فكرة الاعتراف إما الإنكار أو الإقرار الضمني، ليتم بعدها تشكيل عصمة وثقا بين شرعية السيادة الاعتباطية والتواطؤ معها (لتصبح الأفعال وكأنها حرة ولكنها تخضع للمسيطر و تتواطىء معه بكل وعي) أو ما يعرف بالتواطؤ الواعي، إذا الفاعلين يساهمون في إضفاء و صناعة الشرعية على السلطة.

يمر توليد السلطة الرمزية عبر تحويل اجتماعي بالاستثمارات، وبتجديد استثمار الرساميل التي هي عبارة عن "طاقات رمزية" تولد مزايا اجتماعية و رمزية، عملية التحول هذه تقع في رحم العلاقات الاجتماعية ذات الطابع النزاعي والجدلي (فكرة الصراع) لفرض أنماط الرؤية والأحكام الثقافية بما هي حقل التوجهات الرمزية، تخلص إلى اصطفاء بعضها و نبذ بعضها الآخر.[15]

فحقيقة الفرض تكمن في أن السلطة تسعى دائما إلى تعميق التميز و الاختلاف بين الطبقات الاجتماعية ويتجلى هذا في استحواذها على ما يدره الرأسمال الرمزي من مزايا و خيرات تخدم مصالحها وبالتالي تفرض رؤيتها التي تعتبر تعسف ثقافي بامتياز على الفضاء الاجتماعي، كما تعمل على إعادة إنتاج النظام الاجتماعي السائد فتنتج السلطة موضوعها المتمثل في الهيمنة وتعمل على حفظ إنتاجها وهكذا دواليك في حركة دائرية لا مفكر بها.

ثانيا: الرأسمال الرمزي كآلية لضمان الشرعية:

نظرا إلى تميز عمل بيار بورديو بصفات الموسوعية والتحدي والتنوع المدهش، فهو لم يترك مجالا إلاً وتولاه بالبحث و الدراسة، هذا إذا دلَّ إنما يدل على قدرته و إبداعه الخلاق متجاوزا التناقضات التي عهدها علم الاجتماع و العلوم الإنسانية ككل، ليفصل بين التحليل الرمزي والتحليل المادي للظواهر ولطبيعة الأشياء ، هذا ما أدى باتهام الرجل بالتعقيد فنسجت حوله أحكام مسبقة تسيء فهم منطق عمله، لهذا يلزم على الباحث أن يقرأ أعماله بالكامل لكي يتمكن من فهمه و استيعاب مقولات صاحب "**الثورة الرمزية**"، و بناء عليه فإن مفهوم الرأس مال الرمزي يشكل نواة وجوهر أعماله وأبحاثه، فلقد عمل على توسيع فكرته معطيا أهمية كبرى للممارسات الرمزية التي هي في حقيقتها علاقات قوة و علاقات معنى معا، إن التبادلات الرمزية التي تصاحب هذه الحقيقة المتصلة بآلية إعادة الإنتاج التي تساهم في الحفاظ على اللامساواة داخل الفضاء الاجتماعي، فإن تصور الرأسمال الرمزي كشرعية ينبغي الوقوف عليه بتمعن و عناية فهو – إن سمح لنا الكلام– الاعتراف بقوة وسلطة من يملك المزايا الأكثر حسب رؤية بورديو.

إن عبقرية بورديو تظهر في كشفه لآليات الهيمنة الرمزية عبر الرأسمال الرمزي حيث يقول:« **إن كل رأسمال، مهما كانت الصورة التي يتخذها يمارس عنفا رمزيا بمجرد أن يعترف به، أي أن يتجاهل في حقيقته كرأسمال ويفرض كسيادة تستدعي الاعتراف**».[16]نفهم من هذا التصريح البورديوي أن تشكل الرأسمال الرمزي داخل بنية العلاقات الموضوعية يعد سلطة، تتطلب من الفاعلين الاعتراف بها مما يسمح له بممارسة عنفه، و بالتالي يتم تجاوز وتجاهل أصله باعتباره رأس مال ليتم الإقرار به على أنه مبدأ فوقي يجب الاعتراف به.

أطلق بورديو على آلية الكشف السالفة الذكر تسمية وهي "**الخمياء الرمزية**"[*] **l'alchimie** وهي قوة سحرية كما يقول عنها:" **كأن يعطى الأمر فيطاع شيء أشبه بالسحر**». [17]وأصل هذه الفكرة دوركهايمي المنبع استعارها من "**مفهوم المانا**" تجعل من كل خاصية أشبه أيا كانت، قوة جسدية أو ثروة أو قوة حربية أو موهبة أو معرفة رأسمالا رمزيا "[18] ولكن على صعيد التسمية فالمصدر ذو اشتقاق لغوي عربي بحت.

و يقصد بالخمياء الرمزية قدرتها على تحويل علاقات السيطرة والعنف إلى علاقات صداقة و تعاطف بين المسودين و المهيمنين، فمثالا المبادلات الاقتصادية هي مبادلات في أصلها مادية قائمة على مبادلات رسمية نقدية

خالية من العاطفة، ففي حالة شراء الهدايا يقوم المهدي بنزع الملصقة الخاصة بالسعر مما يؤدي إلى نفي المبادلة، منه يتحول الفعل إلى عطاء رمزي أخلاقي فيصبح نوع من الامتنان و الدين يتم تسديده من قبل المهدى إليه بعد حين أو إلى أجل غير مسمى، وما يصدق على المبادلات الرمزية القائمة على مستوى العلاقات الاجتماعية يصدق بالضرورة على العلاقات السياسية.

يقول بورديو في هذا المقام:«**تنتج الشمياء الرمزية ...رأسمالا من الاعتراف يسمح له بممارسة تأثيرات رمزية...فالرأسمال الرمزي خاصية ما أو قوة بدنية أو ثروة أو قيمة حربية، يتلقاها فاعلون اجتماعيون مزودون بمقولات إدراك وتقدير تسمح لهم بالالتقاط و المعرفة و الاعتراف بها، فتصبح فعالة رمزيا و قوة سحرية حقيقية**».[19]هذا الاعتراف هو الذي يؤدي إلى شرعية الممارسة السلطوية، فتحوير الرأسمال الرمزي مرهون بجملة من الشروط تحقق ما أسماه بورديو"**بدائرة الشرعية**" "وجودها يؤمن اشتغال السلطة و أفولها و انسحابها يصدع الشرعية و يعري فضاضة الاعتباطية"[20].

لقد احتفظ بورديو بمفهوم الشرعية من مرجعيته الفيبرية كما أشرنا سابقا، هذا المفهوم الأساسي يسمح بفهم كيفية استمرار السلطة السياسية دون أن تلجأ إلى قوة العنف الظاهر والإكراه؛ والجوب عن سؤال كيف ذلك؟ يكمن في أن عامل الاعتراف المتفق عليه من قبل الفاعلين، فهم يعترفون بالسلطة صاحب رأسمال الرمزي عليهم والذين يقول بورديو عليهم المسودين أو المسيطر عليهم و يتضامنون مع المسيطر، وفي هذا الوضعية التي يندمج فيها المهيمن مع المهيمن عليهم بكل ود وانسجام يتساءل بورديو عن السبب الذي أدى إلى هذا التواطؤ بين المسودين و أصحاب الرأس المال الرمزي المحتكرين للسلطة الرمزية.

تمنح السلطة الرمزية، الشرعية للشخص المفوض من قبلها بفعل هذه الوصايا، يستثمر هذا الشخص هذه المنزلة في علاقات القوى و رؤوس أمواله المتأتية من هذا الموقع، فبعد أن تفوض السلطة الصلاحيات لصاحب الرأسمال الرمزي على اعتبار أن التفويض هو في حد ذاته سلطة كما يقول عنه بورديو:«**التفويض الذي بموجبه يمنح شخص ما سلطة.**»[21] يقوم هو الآخر باستغلال النفوذ داخل الموقع الذي ينتمي إليه ، فيمارس هيمنته على أولئك الذين حرموا من الاعتراف وجردوا من الشرعي :«**لا يستطيعون أن يؤسسوا أنفسهم أو يتأسسوا كجماعة. أي كقوة قادرة على أن تكون مفهومة و أن تتحدث وتنال الإصغاء، إلاّ بتجريد أنفسهم لصالح متحدث رسمي.**»[22] ، فيتقبل المسيطر عليهم هذا الوضع بكل بساطة و هذه البساطة سببها جهلهم بما يمارس عليهم لأنهم يعتبرون الأمر عادي وطبيعي، في حين أنهم يتواطؤن مع السلطة بدون وعي منهم أو حتى بدون رغبة منهم في الاعتراف بأنهم يتواطؤن ولو كانوا على دراية وعلم ووعي بذلك، و يظهر هذا التواطؤ باعترافهم و إيمانهم بقوة المهيمن، فيتوهمون شرعية السلطة و يصادقون عليها فينحصر دورهم في الخضوع وتقديم مناسك الطاعة و

إن تصور بيار بورديو لمسألة الوعي قريب جدا من المقاربة الماركسية، خاصة في مقولة كارل ماركس الشهيرة:" ليس وعي الناس ما يحدد وجودهم، بل وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم" الوجود الاجتماعي سابق انطولوجيا على الماهية، حيث يرى بورديو في هذا السياق أن السيطرة الرمزية لا تقوم لها قائمة إلاّ من خلال تحقق شرطي الجهل وتغيب الوعي على الذات ليؤكد قائلا:« **السيطرة الرمزية تقوم على عدم المعرفة، وبالتالي الاعتراف بمبادئ تتم باسمها ممارسة السيطرة**»[23]فعدم المعرفة والجهل بالحقوق كأن يشتغل الفلاح الأمي أو الخادم البسيط في أداء أعمال تتطلب تعويضات معتبرة، فيقوم بتأديتها دون وعي منه بمستحقاته التي يحفظها له القانون، فيصبح محل استغلال من قبل سيده.

إن الجهل بميكانزمات التراتب الاجتماعي يدفع بالمسودين إلى التوجه إلى مسلك التواطؤ الذي ينعدم فيه الوعي بالإذعان لأن الوعي بالذات المتمثلة يتضمن الوعي بالسلطة المستنبطة.[24] تغيب الوعي عن ذهن المسيطر عليه يعزز الممارسات الرمزية للسلطة فتحضا بالاعتراف و الشرعية من قبله، لأنه يجهل عمق الأضرار التي ستلحق به لاحقا فالعنف الرمزي هو أرقى و أعتا أنواع العنف لأن أثاره تظهر على المدى البعيد و بجهل من المسود مما يجعله أخطر من العنف الظاهر.

إن الأمثلة كثيرة لتوضيح كيفية اشتغال و توظيف الرأس مال الرمزي من قبل السلطة، من أجل ضمان الشرعية، فمثلا لدينا الدولة و سلطة الخطاب الذي سيصبح مع بورديو خطاب للسلطة، ومنه سنوضح أمر هذين المثالين، لنبدأ بالدولة التي هي عبارة عن بنك متعدد من الرساميل من بينهم الرأس المال الفزيائي، المتمثل في العنف الفزيائي (بوليس جيش وغيره)، «فهي الوحيدة التي لها الحق في امتلاك هكذا جهاز ولا يجب أن ينافسها في ذلك أحد فهي تستخدمه بغية الحفاظ على أمن الفئات الاجتماعية "جميعها"، و هذا الحق الشرعي عائد للدولة وحدها و يجب على المواطنين أن يعترفوا بشرعية هذا الحق وبالتالي بشرعية القوانين التي تطبق عليهم من قبلها.»[25] فالدولة هي الوحيدة التي تملك الحق و الشرعية في هذا التصرف الممارس و الموسوم بطابع العنف من أجل ضمان الصالح العام داخل حدودها الجغرافية، من هنا نلاحظ كيف تسخر القوة (باعتبارها رأس مال رمزي) من أجل خدمة الدولة (السلطة).

أما بالنسبة إلى مسألة الخطاب الرسمي النابع من مخاطب متحصل على امتيازات فوضته الجهة الوصية (يمكن أن تكون دولة أو وصايا عليا)، أن يكون ممثلا وناطقا باسم سلطة ما بعد أن استحوذا على رأس مال رمزي (كشاهدات علمية معترف بها من قبل الدولة)، ومنه فإن بورديو قد وقف بتمعن من أجل تحليل دقيق للخطاب الذي سيصبح عنده خطاب للسلطة لكن كيف ذلك؟

في البدء يجب أن نشير أن بورديو يهتم بالغة التي يعتبرها تجليا للفكر أو المفهوم السلطوي، فهو يقول: «**الأسماء ملغومة بنعوت ضمنية، و الأفعال تنطوي على أوصاف صامتة تميل إلى التأيد و الاستنكار، إلى إقرار الوجود و الدوام أو إلى الخلع والطعن ونزع الاعتبار.**»[26] ،يعتبر بورديو أن اللغة مكمنا للسلطة، وهي في هذا الموضع تتحدد كلغة رسمية (بشرط أن تكون شرعية سليمة تخضع لقواعد الصرف والنحو) ، إلاّ أن الحقيقة السلطوية يمكن إظهارها في الممارسة الخطابية اليومية إذ يرى أن هناك حقائق و يقينيات تتسلل إلى الخطاب عن طريق المسبقات التي تسكن اللغة والقوالب الجاهزة الساكنة في الخطاب المعتاد عليه يوميا و المتداول حول القضايا الاجتماعية.

ويمكن القول بأن بورديو لا يسند السلطة إلى العلاقات الإلزامية التي تقوم بين اثنين على الأقل بل يمددها لتصبح متداولة ذائعة الصيت لا يخلو منها مكان، وهي تتخذ من البنى الرمزية مستقر لها كالدين و الفن و اللغة (المنظومات الرمزية بالغة بنيوية) لأنها أدوات معرفية، و في نفس الوقت تواصلية وتمارس سلطة لأنها كذلك بنيات تقيم و تصنع نظاما معرفيا عن هذا الواقع.

كذلك يجب أن يصدر الخطاب من الشخص الذي سمح له بأن يلقيه، أي عن هذا الذي عرف و اعترف له بأنه أهل لذلك وبتالي يمكنه أن ينتج فئة معينة من الخطابات.[27]

يقول بورديو في الحصة التلفزيونية الشهيرة **Apostroph**e من تنشيط برنارد بيرو التي أذيعت العام 1982 وكانت تقديم حول كتاب بورديو، ما يعنيه القول اقتصاد التبادلات اللغوية **ce que parler veut dire l'économie des échanges linguistiques**: «**ليست سلطة الكلام إلاّ السلطة الموكلة لمن فوض إليه أمر التكلم بلسان جهة معينة و الذي لا تكون كلماته على الأكثر إلاّ شهادة من بين شهادات أخرى على ضمان التفويض الذي أوكل للمتكلم و أقصى ما تفعله اللغة هو أنها تمثل هذه السلطة وتظهرها وترمز إليها**».[28]

فالخطاب الرسمي هو الخطاب الصادر عن جهة شرعية كالدولة،و يعطي أمثلة عن القس أو السكرتير العام للأساقفة فهو عندما يتحدث يتكلم بسم الجماعة المسحية الكاثوليكية وحسب و بالتالي يسقط باقي الطوائف الدينية المسحية من خطابه الرسمي، ومنه ليس هناك سلطة للخطاب بل خطاب للسلطة، فتحليل الخطاب لبورديو لا يمكن أن يكون تحليلا لذاته، لأن المعنى الحامل له لا يمكن أن يتضح إلاّ من خلال ربطه بالشروط الاجتماعية التي أدت إلى إنتاجه، بمعنى أدق الوضع والمكانة التي يحتلها صاحبه أو الناطق بسمه ومن جهة أخرى إلى نوع ومجال الحقل الذي أنتج من أجله.

إذا عند بورديو لا وجود لسلطة الخطاب بل كل ما هنالك خطاب للسلطة، يقول بورديو هنا :«**تكمن خصوصية الخطاب السلطوي (مثل درس الأستاذ وخطبة الواعظ) في أنه لا يكتفي في أن يكون مفهوما، مستوعبا (بل يمكن أن يكون كذلك في بعض الأحيان من دون أن يفقد نفوذه).**» ،[29]ومنه حتى وإن كانت اللغة المستخدمة من طرف المفوض غامضة ومبهمة فباعتباره حامل لواء الشرعية فلن يفقد سحره ونفوذه واعترافه من قبل المتلقي له، ومنه فاعلية الخطاب "الطقوسي" لا يتحقق إلاّ بشرط الاعتراف به كخطاب نفوذ وسلطة.

يتضح لنا من خلال هذه الأمثلة أن الرأسمال الرمزي مرتبط بأهمية الموقع داخل الفضاء الاجتماعي، أو بالتسمية أو اللقب المعطى له من قبل السلطة الفوقية التي تضمن له الاعتراف و شرعية الممارسة، و ليس الاعتراف بالشرعية فعلا حرا للوعي اليقظ، مثلما يعتقد ماكس فيبر، إنه فعل يمتد بجذوره إلى الاتفاق المباشر بين البنى المتحدة والمندمجة (الذاتية والموضوعية) فيما بينها، والتي مع مرور الزمن أصبحت لاواعية بحجم الإكراهات والممارسات المفروضة عليها، كما أن هذا الاستحقاق الممنوح من قبل السلطة يتطلب من حامل رأسمال الرمزي تقديم فروض الولاء والإذعان لمن اعترفت به و التي هي بطبيعة الحال "**السلطة الرمزية**" ، بالغة الجابري تأدية وممارسة أخلاق الطاعة و الالتزام بها.

خاتمة

وفي الأخير يمكن الوقوف على النقاط التالية:

*- عمل بورديو على إظهار علاقات القوة المتضمنة في الواقع الاجتماعي، فالتزم بالكشف عن طرق الهيمنة الطبقية الكامنة في المجتمعات، وحاول إظهارها في جميع النواحي التعليم الفن اللغة الخطاب وغيرها، كما سعى إلى تقديم تفسير لظاهرة الإذعان المدني وما ينجر عنه من تواطؤ من قبل المسودين.

*- مساهمة المؤسسة التعليمية في إعادة توزيع الرأسمال الثقافي من خلال آليات شديدة التعقيد، تحدث في إطار من العلاقات بين استراتجيات العائلات النخبوية ذات المكانة، و بمباركة المنطق الخاص بالمؤسسة الذي تسهر الدولة على تدعيمه باعتباره حافظا لنظامها.

*- تعتبر مسألة السلطة الرمزية قضية محورية في عمل بورديو، وهي الوحيدة التي تمتلك قدرة صناعة الجماعات و خلق نظام الأشياء و منح الاعتراف والشرعية لؤلئك الذين تم توظفهم باسمها لتجعل منهم لسان وخطاب حالها، فبدل أن يتكلم المفوض بسم الجماعة يصبح هو الجماعة وقد تجسدت في شخصه و بالتالي يبدأ التلاعب والنفوذ يسود الجماعة لحظة تنازلهم لناطق يعبر عن انشغالاتهم ومنه تخضر الفردية من جديد، و يبعث بالآخرين إلى زاوية الآراء الحرة التي أسقطت عنها نعمة الشرعية التي تنتجها السلطة و ممارساتها الرمزية.

*- أي سلطة أو رأسمالا ما يصيران رمزا، ويمارسان تأثيرات تتصف بطابع السيطرة يعتبران سلطة رمزية أو عنفا رمزيا، بمجرد أن يصبحا موضوعا للمعرفة أو معترفان بهما، (connu et reconnu)، بعبارة أخرى حين يتاح للسلطة ورأس المال بأن يظهرا كموضوع للاعتراف والمعرفة يتحولان مباشرة إلى أدوات للهيمنة.

قائمة المراجع والمصادر:

(*)- الإنعكاسية: في البدء لابد من أن نشير إلى نظرية الفهم الإنعكاسي تتجه بشكل مباشر صوب عملية الاشتقاق، تلك التي عن طريقها يتم صياغة خطاب توليفي مقبول من الأطروحات المتباينة التي عرفتها أزمان مغايرة و حقول معرفية متعددة، و الإنعكاسية عند بورديو تتجاوز حدود التجربة المعيشة للذات وأهمها الكشف عن الشخصي و اللاشخصي الذي يختفي في الأعماق البعيدة، ذلك الذي ينتهي فيه الفصل بين الوقائع والقيم و إقصاء الذات والآخر في نفس الوقت. نقلا عن شحاتة صيام: النظرية الاجتماعية من المرحلة الكلاسيكية إلى ما بعد الحداثة، مصر العربية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2009، صص 279 -282.

1- بيار بورديو: الرمز والسلطة، ترجمة: عبد السلام بن عبد العالي، (الدار البيضاء المغرب، دار توبقال، للنشر، الطبعة الثالثة، 2007، ص 48.

2- ستيفان شوفالييه كريستيان شوفيري: معجم بورديو،ترجمة: الزهرة إبراهيم، (دمشق، علي مولا، للدراسات والنشر، الطبعة الثالثة، ص 180.

3- عمر أوكان: مدخل لدراسة النص والسلطة(المغرب، دار توبقال، الطبعة الأولى، 1999)، ص 23.

4- بيار بورديو: الرمز والسلطة، مصدر سابق، ص 28.

5-Pierre Bourdieu, L.T.D Wacquant : Réponses pour une anthropologie réflexive ; نقلا عن ستيفان شوفالييه وكريستيان شوفيري : معجم بيار بورديو، ص157.

6- بيار بورديو: العنف الرمزي بحث في أصول علم الاجتماع التربوي، ترجمة نظير جاهل، الدار البيضاء بيروت المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 1994، ص 7.

7- ستيفان شوفالييه كريستيان شوفيري : معجم بوردي، مرجع سابق، ص 221.

8- ستيفان شوفالييه و كريستيان شوفيري : معجم بورديو ، المرجع السابق ،ص 221.

9-Pierre Bourdieu, Raisons Pratique, sur la théorie de l'action; نقلا عن المرجع نفسه ، ص 222.

10- بيار بوردو و جان – كلود باسرون: إعادة إنتاج في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، ترجمة :ماهر تريمش، عن مقدمة المترجم (بيروت لبنان ، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى 2007)، ص 55.

11- المصدر نفسه، ص 55.

12- ستيفان شوفالييه و كريستيان شوفيري : معجم بورديو، مرجع سابق، ص 178.

13-Pierre Bourdieu: Questions de sociologie, coll le sens commun, ED de Minuit, Paris, 1980,110.

14- بيار بورديو جان –كلود باسرون : إعادة إنتاج ،عن مقدمة المترجم، مصدر سابق، ص 56.

15- المصدر نفسه، ص 58.

16- بيار بورديو: الرمز والسلطة، مصدر سابق، ص 71.

(*)- الخمياء : كلمة عربية نقلت إلى الأجنبية بمعنى الكيمياء أي علم خلط المواد الكيماوية ، لكن العرب الأقدمون استعملوها بمعنى السر الناتج عن خلط المواد الكيماوية و استعملها أدباء العصر الوسيط بمعنى أعجوبة أو سحر . انظر بيار بورديو : أسباب عملية إعادة النظر بالفلسفة، ص 217 .

17- المصدر نفسه، ص 222.

18- المصدر نفسه، ص 223.

19- المصدر نفسه ، ص 222.

20- بيار بورديو جان –كلود باسرون : إعادة إنتاج، عن مقدمة المترجم، مصدر سابق، ص 59.

21- بيار بورديو : بعبارة أخرى، محاولات باتجاه سوسيولوجيا إنعكاسية، ترجمة: نظير جاهل (بيروت–الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 1994)، ص56.

22- بيار بورديو جون –كلود باسرون : إعادة إنتاج، مصدر سابق، ص56.

23- بيار بورديو : أسباب عملية إعادة النظر بالفلسفة، إعادة النظر بالفلسفة، ترجمة: أنور مغيث (الجماهيرية الليبية: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ط1، 1425هـ الموافق ل1966)، ص 202.

24- بيار بورديو و جون كلود باسرون: إعادة إنتاج، عن مقدمة المترجم، مصدر سابق، ص 76.

25- علي سالم : بيار بورديو نظام الإستعدادت و التصورات الدولة: اكتشاف بورديو للبعد الرمزي (مجلة كتابات معاصرة، العدد 29، المجلد الثامن، بيروت: الشركة العربية للتوزيع، 1997/1996)، ص 131.

26- بيار بورديو: الرمز والسلطة، مصدر سابق، ص ص 13-12.

27- بيار بورديو جان –كلود باسرون : إعادة إنتاج، عن مقدمة المترجم، المصدر السابق، ص 59.

28- Pierre Bourdieu: Présentation de ce que parler veut dire, dialogue avec Bernard bureau, mission de Apostrophes, ina.fr 1982.

29- بيار بورديو جان –كلود باسرون : إعادة إنتاج ،المصدر السابق ، ص 59